الفصل الخامس

لا بد أن أقف عرضى لنموّ التحليل النفسى فى ذاته ، وأعرج على تأريخ ملابساته الخارجية . كل ما شرحته حتى الآن من كشوف التحليل النفسى يختص القسط الأكبر منه بنتائج بحثى الخاص ؛ ولكننى أدمجت فى قصتى أموراً من تواريخ متأخرة فلم أفرّق بين ما قدمته أنا وبين ما قدّمه تلامذتى وأتباعى .

بقيت أكثر من عشرة أعوام بعد انفصالى عن « برويو » دون أتباع ، فكنت فى عزلة تامة . وكان نصيبى الإعراض فى ڤيينا ولم يلتفت إلىّ أحد فى الخارج . وقلما عرضتْ المجلات الفنية لكتابى تأويل الأحلام الذى نشر عام ١٩٠٠ . وقد أشرت فى مقالى عن " تاريخ حركة التحليل النفسى " ، كمثل للموقف الذى كانت تتخذه منى دوائر الطب النفسى فى ڤيينا ، إلى محادثة جرت مع مساعد بالمستشفى ، كان قد ألّف كتاباً يعارض فيه نظريانى دون أن يقرأ كتابى فى تأويل الأحلام . فقد ألقى فى روعه بعض من بالمستشفى أنه كتاب تافه. وقد تمادى هذا الرجل ، الذى أصبح منذ ذلك الحين أستاذاً ، فأنكر بيانى عن المحادثة ، وأثار شكوكاً حول دقة ذاكرتى. ولا يسعنى إلا أن أقول إننى أؤيد كل كلمة من الكلمات التى وردت فى ذلك التقرير .

ما أن أدركت أن ذلك الموقف لم يكن منه بدّ ، حتى قلّت حساسيتى إلى حدّ كبير . وفضلاً عن ذلك انقضت عزلتى بالتدريج ، إذ بدأ نفر من التلاميذ يلتفون حولى فى ڤيينا ، ثم وافتنا الأنباء بعد عام ١٩٠٦ أن الأطباء النفسيين فى زيورخ ، « يوچين . بلوير »، ومساعده « كارل . ج . يونج » وغيرهما يولون التحليل النفسى اهتماماً عظيماً ، فاتصلنا اتصالا شخصياً ، وفى عيد الفصح عام ١٩٠٨ تلاقى أصدقاء العلم الناشىء فى سالسبورج ، واتفقوا على أن يعقدوا بانتظام مؤتمرات خاصة مماثلة وأعدّوا العدّة لإصدار مجلة يرأس تحريرها

« يونج » باسم : جريدة البحوث السيكوپاثولوچية والتحليلية . وقد صدرت المجلة تحت إشراف« بلويلر » وإشرافى ثم توقفت عن الصدور فى بدء الحرب الكبرى[١] .

وفى نفس الوقت الذى انضم فيه أطباء سويسرا النفسيون إلى الحركة ، كان الاهتمام بالتحليل النفسى قد بدأ يظهر فى ألمانيا بأسرها ؛ إذ أصبح موضوعاً لعدد كبير من التعليقات التحريرية فضلاً عن المناقشات الحارة بالمؤتمرات العلمية . ولكنه لم يحظ أبداً بلقاء ودى أو حتى بترحيب دون تحيز . وإن هى إلا معرفة وجيزة بالتحليل النفسى حتى أجمع العلم الألمانى على نبذه .

بل إنه ليستحيل اليوم علىّ بطبيعة الحال أن أتكهن ماذا سيكون حكم الخلف النهائى على قيمة التحليل النفسى للطب النفسى ، وعلم النفس ، وللعلوم العقلية على وجه العموم . ولكن يهيأ لى أنه عند ما تحين كتابة تاريخ المرحلة التى عشناها ، فلن يكون للعلم الألمانى حق الافتخار بأولئك الذين مثلوه . ليس ذلك لأنهم نبذوا التحليل النفسى أو لأنهم فعلوا ذلك بطريقة قاطعة ؛ فكلا الأمرين كان من السهل فهمهما ، وكانا أمراً منتظراً ، وعلى كل حال فلم يكن فيهما ما يُشين مُناوئى التحليل ؛ ولكن الذى لا يُغتفر لهم هو ما أبدوه من مكابرة ، وازدراء للمنطق غير أمين ، وفظاظة هجماتهم وفساد ذوقها . قد يقال إنه لأمر صبيانى منى أن أطلق العنان الآن لمثل تلك المشاعر بعد أن انقضت خمس عشرة سنة ؛ وما كان لى أن أفعل ذلك لولا أن عندى شيئاً آخر أضيفه . بعد أعوام ، وفى أثناء الحرب العظمى ، عند ما كانت جماعة من الأعداء يتهمونّ الأمة الألمانية بالهمجية ، تلك التهمة التى توجز كل ما وصفته آنفاً فقد آلمنى أشد الألم أن خبرتى الخاصة لا تسمح لى بإنكارها .

وقد زها أحد المناوئين لى بأنه يُسكت مرضاه بمجرد شروعهم فى الحديث عن أى شىء جنسى ، وواضح أنه كان يرى أن تلك الطريقة تعطيه الحق فى الحكم على الدور الذى تلعبه الجنسية فى الأمراض العصابية . ففضلاً عما لديهم

(١) الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨ . (المترجم)

من المقاومات الانفعالية التى لم يكن من العسير تفسيرها وفق نظرية التحليل النفسى بحيث لم يكن يتسنى لها أن تضللنا ، فقد بدا لى أن الحائل الأساسى دون تسليم المناوئين بالتحليل النفسى أنهم اعتبروه نتاج شطحاتى الخيالية ، وأصروا على ألا يؤمنوا بالعمل الطويل المثابر غير المتحيز الذى أدى إليه .

وحيث أن التحليل النفسى لا شأن له فى زعمهم بالملاحظة أو التجريب ، فقد أحلوا لأنفسهم رفضه دون تجريب . فى حين أن غيرهم ممن كانوا أقل يقيناً بتلك الحجة ، كانوا فى مقاومتهم يصطنعون الحيلة القديمة ، أعنى رفض النظر من خلال الميكروسكوب حتى يتجنبوا رؤية ما أنكروه . وإنه لعجيب ، حقّاً ، أن معظم الناس يسلكون مسلكاً غير أمين إذا اضطروا إلى تكوين حكم خاص على موضوع جديد . منذ أعوام وأنا أسمع من نقاد " كرام " — ولا زلت أسمع نفس الشىء إلى الآن — أن التحليل النفسى صحيح فى كذا وكذا ولكنه فيما عدا ذلك يغلو ويعمم دون مبرّر . ولكننى أعلم أنه فى حين أن من أصعب الأمور وضع مثل ذلك الحدّ الفاصل كان النقاد على جهل تام بالموضوع كله قبل ذلك بأسابيع أو أيام قلائل لا أكثر .

وكان من أثر الاستنكار الرسمى للتحليل النفسى أن بدأ المحللون النفسيون يتكتلون . فى المؤتمر الثانى ، الذى عقد بنورمبرج سنة ١٩١٠ ، أسسوا بناء على اقتراح « فرنتزى » ، « الجمعية الدولية للتحليل النفسى » مقسمةً إلى عدد من الجمعيات المحلية ولكن تحت رياسة واحدة بقيت الجمعية الدولية إبان الحرب العظمى ولا تزال قائمة ، وتشمل اليوم فروعاً فى النمسا ، وألمانيا ، والمجر ، وسويسرا ، وبريطانيا العظمى ، وهولندا ، وروسيا ، والهند ، وكذلك فرعين فى الولايات المتحدة [١] . وقد دبّرت اختيار « كارل . ج . يونج » أول رئيس ،

(١) توجد الآن عدة فروع فى الولايات المتحدة وكذلك فى بعض بلاد أمريكا الجنوبية ، كما توجد فروع فى فرنسا وبلجيكا وإيطاليا والسويد واليابان وإسرائيل . أما فى مصر فيوجد نفر قليل من المحللين النفسيين وهم الأعضاء فى فروع الجمعية الدولية وقد كونوا أخيراً رابطة للتحليل النفسى نوطئة لجعلها فرعاً من فروع الجمعية الدولية فى القريب . (المترجم)

الأمر الذى تبين فيما بعد أنه كان خطوة أبعد ما تكون عن التوفيق . وفى نفس الوقت صدرت مجلة ثانية مخصصة للتحليل النفسى ، وهى « المجلة المركزية للتحليل النفسى » يحررها « أدلر » و « شتيكل » ، وبعد قليل صدرت مجلة ثالثة « إماجو » يحررها اثنان من المحللين غير الأطباء هما « هـ . ساكس » و « أ . رانك » ، هدفها تطبيق التحليل على العلوم الإنسانية . وبعد ذلك بقليل نشر « بلويلر » مقالا فى الدفاع عن التحليل النفسى [١] . وأيا ما كانت الراحة التى استشعرتها إذ وجدت لأول مرة أمانة فى المناقشة واستقامة فى المنطق ، إلا أننى لم أستطع أن أشعر بالرضا التام على مقال « بلويلر » . لقد كافح فى حماس زائد كى يبدو نزيهاً ، ولم يكن من محض الصدفة أنه هو الذى كشف لنا عن تلك الفكرة القيمة ، « الازدواج الوجدانى » . وفى مقالات تالية اتخذ « بلويلر » ذلك الموقف النقدى من البناء النظرى للتحليل النفسى منكراً أو مثيراً الشكوك حول بعض أجزائه الرئيسية ، حتى لا يسعنى إلا أن أتساءل فى دهشة أبقى منه بعد ذلك شىء يعجبه . ولكنه لم يكتف بعد ذلك بذكر أقوى الحجج دفاعاً عن « سيكلوجيا الأعماق » بل إنه جعلها الأساس الذى أقام عليه دراسته الشاملة للفُصام . ومع ذلك لم يمكث « بلويلر » مدة طويلة عضواً فى الجمعية الدولية للتحليل النفسى ؛ إذ استقال منها على أثر خلافات مع « يونج » ، وبذلك فقد التحليل مستشفى « برجولزلى » [٢] .

لم يستطع الإنكار الرسمى للتحليل النفسى أن يحول دون انتشار التحليل النفسى لا فى ألمانيا ولا فى البلاد الأخرى . وقد تتبعت فى كتاب آخر [٣] مراحل نموّه مسمياً أولئك الذين كانوا أول ممثليه . فى عام ١٩٠٩ وجه « ستانلى هول » ليونج ولى دعوة إلى أمريكا كى نزور جامعة « كلارك » بورسستر ، ماساشوستس وكان رئيساً لها ، وكى نقيم أسبوعاً نلقى فيه محاضرات (بالألمانية)

(١) التحليل النفسى عند فرويد ، مجلة البحوث السيكوپاثولوجية والتحليل النفسى ، المجلد الثانى ١٩١٠ .
(٢) المستشفى العامة للأمراض العقلية بزيوريخ .
(٣) فى تاريخ حركة التحليل النفسى .

بمناسبة الاحتفال بالذكرى العشرين لتأسيس تلك الجامعة . كان « هول » اعتباره الحق كعالم نفسي وتربوي ، وكان قد أدخل التحليل النفسي ضمن محاضراته قبل ذلك الحين بأعوام ؛ وكانت تبدو عليه خصلة " صـــانع الملوك " يجد لذة في إقامة السلطات ثم عزلها . وقد قابلنا أيضاً « جيمس بوتمان » طبيب الأعصاب بهارفارد ، الذي كان على الرغم من سنه متحمساً للتحليل النفسي والذي سهم بشخصيته ذات التقدير العالمي في الدفاع عما للتحليل من قيمة ثقافية وأهداف نبيلة . كان « بوتمان » رجلاً يستحق التقدير ، يتملكه — نتيجة استعداد فيه لعصاب الوسوسة — اتجاه أخلاقي ؛ وإن الشيء الوحيد الذي أسفنا له ، هو ميله إلى أن يصل التحليل النفسي بمذهب فلسفي خاص ، وأن يجعله خادماً لأهداف أخلاقية . وثمة حادثة أخرى وقعت في ذلك الحين وكان لها أثر دائم عليّ ، تلك هي لقائي الفيلسوف « وليم جيمس » . لن أنسى مشهداً بسيطاً وقع أثناء تريضنا ذات مرة . إذ توقف فجأة ، وناولني حقيبة كان يحملها ثم طلب مني أن أمضي في السير ، قائلاً إنه سيلحق بي حالما تزول عنه ذبحة صدرية كانت على وشك أن تنتابه . وبعد عام من ذلك الحادث توفي بذلك الداء وقد تمنيت دائماً أن أكون كما كان ثابت الجنان عند مواجهة الموت .

في ذلك الوقت كنت لا أزال في الثالثة والخمسين ، أشعر بالشباب والعافية ، وقد أذكت زيارتي القصيرة للعالم الجديد شعوري بقيمتي من كل النواحي . كنت في أوروبا أشعر كما لو كنت محتقراً ؛ أما هنالك فوجدتني أقابل من أبرز الرجال مقابلة الند للند . فما صعدت إلى منصة « ورسستر » كي ألقي محاضراتي الخمس عن التحليل النفسي حتى خيل إليّ أن حلماً لا يُصدّق من أحلام اليقظة قد تحقق : لم يعد التحليل النفسي هذياناً ، بل أضحى جزءاً قيماً من الواقع . ولم يتقهقر التحليل في أمريكا منذ زيارتنا لها ؛ فهو شائع شيوعاً كبيراً بين عامة الجمهور ويعترف به نفر من الأطباء النفسيين الرسميين كعنصر هام في دراسة الطب . ولكنه لسوء الحظ عانى الشيء الكثير بسبب ابتذاله . فضلاً عن أن

كثيراً من الأخطاء هو بريء منها انتحلت اسمه، وليس هناك غير فرص ضئيلة لمران كامل عملاً ونظراً [١] . هذا وقد تعارض فى أمريكا مع المذهب السلوكى ، ذلك الذى بلغت به السذاجة حد التفاخر أنه ألغى نهائياً مشكلة علم النفس برمتها [٢] .

بين سنتى ١٩١١ ، ١٩١٣ وقعت فى أوروبا حركتان انفصاليتان عن التحليل النفسى ، قادهما رجلان كان لهما من قبل دور معتبر فى العلم الجديد ، هما « ألفرد أدلر » و « يونج » . وقد أنذرت كلتا الحركتين بأكبر الخطر وسرعان ما التف حولهما كثير من الأتباع . على أن قوتهما لم تأت من فحواهما الخاص ، بل مما كانت تنطويان عليه من إغراء بالتبرؤ من الأمور المنفرة فى التحليل النفسى دون حاجة إلى نبذ مادته الفعلية . حاول « يونج » أن يأتى لحقائق التحليل بتأويل جديد يتصف بأنه تأويل مجرّد لا يستمد من خبرات الشخص ذاته أو من تاريخه آملاً من وراء ذلك أن يتخطى الحاجة إلى الاعتراف بأهمية الجنسية الطفلية وعقدة أوديب فضلاً عن ضرورة أى تحليل للطفولة . أما « أدلر » فقد بدا أكثر ابتعاداً عن التحليل النفسى ؛ أنكر إنكاراً باتاً أهمية الجنسية ، وردّ تكوين الخلق وأمراض العصاب إلى مبدإ واحد هو رغبة الناس فى القوة وحاجتهم إلى تعويض ما بهم من نقص جبِلّى ، وألقى بكل الكشوف السيكولوجية التى توصل إليها التحليل النفسى أدراج الرياح . بيد أن ما نبذه عاد رغماً عنه إلى مذهبه المغلق متخذاً أسماءً جديدة ، فهذا "احتجاج الذكورة" ما هو إلا الكبت متسما بالجنسية دون مبرّر . كان نقدى للخارجين نقداً رفيقاً ؛ ولم أزد على أن أصررت على أن يعدل كل من « أدلر » و « يونج » عن تسمية نظريتيهما « تحليلاً نفسيًّا » . والآن بعد

---

(١) ليس الحال كذلك الآن وقد أشرنا فى هامش سابق إلى وجود فروع الجمعية الدولية للتحليل النفسى هناك ، وهى فروع تشمل معاهد للتدريب الجدى على التحليل النفسى وفقاً للقواعد المتبعة فى معاهد التحليل النفسى فى أوربا . غير أن المعاهد الأمريكية لا تقبل إلا الأطباء لتدريبهم ، فى حين أن هذا الأمر يجد بعض الاستثناء فى بعض المعاهد الأوربية . (المترجم)

(٢) تغير الحال عن وقت كتابة فرويد لهذا الكتاب فقد أدى تطور البحوث السيكولوجية إلى اقتراب النظرية السلوكية من التحليل النفسى وقامت محاولات لتفسير مفاهيم التحليل النفسى بمقتضى النظرية السلوكية . (المترجم)

مضى عشرة أعوام يمكننا أن نقرّر أن هاتين المحاولتين ضد التحليل النفسى مرّتا دون أن تنالاه بسوء .

لو أن مجتمعاً قام على اتفاق على بعض النقط الرئيسية ، ثم خرج أناس على ذلك الأساس المشترك ، فمن الواضح ألا يصبحوا بعد ذلك منتسبين إلى ذلك المجتمع . بيد أن انشقاق تلاميذ قدماء عنى ، غالباً ما اتُّخذ ضدى دليلاً على تعصبى لرأيى أو اعتُبر نذيراً بقَدَرٍ ما معلق فوق رأسى . ويكفى ردّاً على ذلك أنه فى مقابل أولئك الذين هجرونى من أمثال « يونج » و « أدلر » و « شتيكل » وقليل معهم ، ظل عدد كبير من الرجال شأن « أبراهام » ، و « أيتنجتون » ، و « فرنتزى » و « رانك » ، و « جونس » ، و « بريل » ، و « ساكس » ، و « بفيستر » ، و « فان إمدن » ، و « رايك » ، وغيرهم ، يعملون معى حوالى خمسة عشر عاماً فى تعاون مخلص وصداقة لا تنفصم عراها . على أننى لم أشر إلا إلى أقدم تلامذتى ، أولئك الذين كوّنوا لأنفسهم فعلاً اسماً لامعاً فى مؤلفات التحليل النفسى ؛ وإذا كنت قد أغفلتُ ذكر غيرهم ، فلا يؤخذنّ ذلك على أنه استهانة بهم ، فالواقع أنا نجد بين أولئك الناشئين والذين انضموا إلىّ أخيراً مواهب نعلق عليها أكبر الآمال . ولكن أظن أن بوسعى أن أقول دفاعاً عن نفسى إن رجلاً متعصباً لرأيه ، يتملكه اعتداد مكابر بأنه معصوم من الخطأ ، ما كان بوسعه مطلقاً أن يحتفظ بوفاء ذلك العدد الكبير من أذكياء القوم ، وبخاصة وإن كان مثلى لا يحظى إلا بالنزر اليسير من المغريات العملية .

إن الحرب العظمى ، التى قضت على عدد كبير من الهيئات الأخرى ، لم تستطع أن تنال من " الجمعية الدولية " . أقيم أول اجتماع بعد الحرب سنة ١٩٢٠ فى « لاهاى » على أرض محايدة ، وقد كان من المؤثر أن نلمس إكرام الهولنديين وفادة الجياع المعوزين من رعايا دول أوروبا الوسطى ؛ وأعتقد أن هذه كانت أول مناسبة فى عالم مخرّب يجلس فيها إنجليز وألمان إلى مائدة واحدة يتناولون بالنقاش الودى موضوعات علمية . وكانت الحرب سواء فى ألمانيا أو بلدان

غرب أوروبا قد أثارت بالفعل الاهتمام بالتحليل النفسى . لقد أفضت ملاحظة عصاب الحرب إلى فتح أعين الأطباء على أهمية المنشأ النفسى للاضطرابات العصابية ، وسرعان ما أتيح لبعض أفكارنا السيكولوجية مثل "منافع المرض" و "اللواذ بالمرض" ، أن تذيع . وكان آخر مؤتمر قبل سقوط ألمانيا ، وهو الذى عقد فى بوداپست عام ١٩١٨ قد حضره ممثلون رسميون لحكومات حلف دول أوروبا الوسطى وقد وافقوا على إنشاء مراكز للتحليل النفسى لعلاج عصاب الحرب . ولكن ذلك الغرض لم يتحقق .

وكذلك فشلت المشروعات الشاملة التى أعدها أحد أعضائنا المبرّزين ، دكتور « أنطون فون فروبند » ، لإقامة مركز للبحث والعلاج التحليلى فى بوداپست بسبب الاضطرابات السياسية فى ذلك الحين ووفاة صاحبها الكريم فى سن مبكر . وبعد ذلك بفترة من الزمن قام بتنفيذ بعض مشروعاته « ماكس أيتنجتون » ، الذى أسس عيادة للتحليل النفسى فى برلين عام ١٩٢٠ . واستطاع « فرنتزى » إبان الفترة القصيرة التى حكم فيها البلاشفة المجر أن يقوم بإلقاء محاضرات تعليمية موفقة بوصفه الممثل الرسمى للتحليل النفسى بجامعة بوداپست . وبعد الحرب أعلن معارضونا فى سرور زائد أن الأحداث تمخضت عن برهان قاطع ينفى صحة نظريات التحليل . قالوا ، إن عصاب الحرب أثبت أن العوامل الجنسية ليست ضرورية فى تعليل الاضطرابات العصابية بيد أن انتصارهم كان سطحيًّا فجًّا . فمن ناحية ، لم يستطع أحد أن يقوم بتحليل كامل لحالة واحدة من حالات عصاب الحرب ، فلم يعرف أى شىء معرفة أكيدة بخصوص الدوافع ولم يكن بوسع أحد أن يخلص من هذا الجهل بنتيجة ما . فى حين أن التحليل النفسى ، من ناحية أخرى ، كان قد وصل قبل ذلك بكثير إلى فكرة النرجسية والعصاب النرجسى ، حيث يتعلق المريض بذاته هو بدلاً من أن يتعلق بموضوع ما . ومع ذلك ، فقد نُعى على التحليل النفسى فى مناسبات أخرى أنه توسع دون حق فى فكرة الجنسية ،

صورة تذكارية أخذت فى سبتمبر ١٩٠٩ بمدينة ورشستر بولاية ماساشوستس (الولايات المتحدة)

الجالسون من اليمين : يونج ، ستانلى هول ، فرويد

الواقفون « « : فرنتزى ، إرنست جونز ، بريل

ولكن ، عد ما جاء الوقت المناسب للجدال ، نسيت هذه التهمة وعادوا بنا مرة أخرى إلى أضيق مفهوم للكلمة .

لو أغفلنا فترة التطهير التمهيدية ، لكان تاريخ التحليل النفسى فى نظرى يقع فى طورين . فى الطور الأول كنت أقف وحدى وكان علىّ أن أحمل وحدى العبء كله : كان ذلك منذ عام ١٨٩٥ — ١٨٩٦ حتى عام ١٩٠٦ أو ١٩٠٧ وفى الطور الثانى ، الذى يمتد منذ ذلك الحين حتى الوقت الحاضر ، وفيه أخذت مساهمات تلاميذى وأعوانى تزداد أهمية ، حتى لأستطيع اليوم إذ ينذرنى مرض عضال باقتراب النهاية ، أن أفكّر هادئ البال فى توقف نشاطى الخاص . ولهذا السبب عينه ، يستحيل علىّ فى هذه الدراسة لسيرتى الخاصة أن أتناول على نحو تام تقدّم التحليل النفسى فى طوره الثانى كما فعلت مع نشأته التدريجية فى طوره الأول ، الذى كان متعلقاً بنشاطى الخاص وحده . وأرى أنه لا يحق لى هنا أن أشير إلا إلى تلك الكشوف الجديدة التى لعبتُ فيها دوراً بارزاً ، وبخاصة ما تمّ منها فى مجال النرجسية ، ومجال نظرية الغرائز ، ومجال تطبيق التحليل النفسى على الذُّهان .

علىّ أن أبدأ بأن أضيف إلى ذلك أن تزايد الخبرة أبان أكثر وأكثر أن عقدة أوديب هى نواة العصاب . فهى قمة الحياة الجنسية الطفلية ونقطة الاتصال بجميع تطوراتها التالية . ولكن ، إن كان الأمر كذلك ، لم يعد لنا أن نتطلب من التحليل أن يكتشف عاملاً خاصّاً فى تعليل العصاب . ولا بدّ أن يكون صحيحاً ، على نحو ما عبّر عنه « يونج » تعبيراً جيداً فى الأيام الباكرة حين كان لا يزال محللا ، أن العصاب ليس له مضمون خاص ينفرد به ، بل إن العصابيين ينهارون أمام نفس الصعوبات التى يفلح فى التغلب عليها الأسوياء من الناس . كان هذا الاكتشاف أبعد ما يكون عن أن يخيّب الرجاء . إذ جاء منسجماً تمام الانسجام مع اكتشاف آخر هو : أن سيكلوجيا الأعماق التى كشف عنها التحليل النفسى هى فى الواقع سيكلوجيا العقل السوى . فكان سبيلنا يشبه ذلك الذى سلكته

الكيمياء إذ ردّت الفروق الكيفية الكبيرة بين المواد إلى تغيرات كمية فى نسب امتزاج العناصر نفسها .

فى عقدة أوديب كان الليبيدو متعلقاً بصورة الوالدين . ولكن كان ثمة قبل ذلك فترة لم يكن فيها مثل هذه الموضوعات . أدّت هذه الحقيقة إلى فكرة (ذات أهمية جوهرية لنظرية الليبيدو) عن حالة يملأ فيها ليبيدو المرء ذاته هو ويتخذها موضوعاً له . هذه الحالة يمكن تسميتها النرجسية أو حب الذات . ولو تأملنا لحظة لتبين لنا أن هذه الحالة لا تتلاشى أبداً تلاشياً تامًّا . إذ تبقى ذات المرء طوال حياته مستودع الليبيدو الأكبر ، منه يصدر التعلق بالموضوعات (شُحَن الموضوعات) وإليه يمكن أن ترتدّ الليبيدو عن الموضوعات . وهكذا فالليبيدو النرجسى دائم التحوّل إلى ليبيدو موضوعى و بالعكس . وثم مثال رائع يصوِّر لنا إلى أى حدّ يمكن أن يذهب هذا التحوّل ، مثال الحب جنسيًّا كان أو عذريًّا إذ يتضمن تضحية بالذات وبينا كنا حتى ذلك الحين إذ ننظر فى عملية الكبت نحصر الانتباه فيما هو مكبوت فحسب ، أمكن بفضل هذه الأفكار أن نكوِّن فكرة أصحّ عن القوى الكابتة . كنا نذهب فيما مضى إلى أن الكبت يحدث بدافع غرائز المحافظة على الذات التى تعمل داخل الذات (غرائز الذات) وأن الغرض منه مقاومة الغرائز الليبيدية . أما وقد تبين الآن أن غرائز المحافظة على الذات هى أيضاً من طبيعة ليبيدية ، وأنها ليبيدو نرجسى ، اعتبرت عملية الكبت عملية تجرى فى نطاق الليبيدو بالذات ؛ وحيث أن الليبيدو النرجسى يعارض الليبيدو الموضوعى ، فإن المحافظة على الذات تقتضى مناهضة مطالب الحب الموضوعى ، أى مطالب الجنسية بالمعنى الضيق .

ليس لعلم النفس حاجة أشد من حاجته إلى نظرية مكينة فى الغرائز يمكن على أساسها أن نمضى فى البناء . ولكن شيئاً من ذلك لا وجود له ، مما اضطر التحليل النفسى إلى بذل الجهود محاولاً الوصول إلى مثل هذه النظرية . بدأ بتصوير تباين بين غرائز الذات (غريزة المحافظة على الذات ، كالجوع) والغرائز

الليبيدية (كالحب) ، ولكنه عدل عنه فيما بعد إلى تباين جديد بين الليبيدو الزجسى والليبيدو الموضوعى . ولم يكن ذلك طبعاً فصل المقال فى الموضوع ؛ إذ بدا أنه يستحيل لاعتبارات بيولوچية أن نقنع بافتراض وجود فئة واحدة من الغرائز .

وفى المؤلفات التى تمّت فى الأعوام التالية (ما بعد مبدأ اللذة ، نفسية الجماعة وتحليل الأنا ، الأنا والهو) ، أطلقت العنان للميل إلى التفلسف الذى كبحته زمناً طويلا ، وأعملت فكرى فى حلّ جديد لمشكلة الغرائز . مزجت غريزتىّ المحافظة على الذات والمحافظة على الجنس فى فكرة إيروس [1] وجعلت قبالتها غريزة الموت أو الهدم التى تعمل فى صمت . والغريزة تعتبر بوجه عام ضرباً من المرونة فى الكائنات الحية ، نزوعاً إلى بعث موقف كان موجوداً من قبل ثم اضطرب نتيجة عامل خارجى . هذه الخاصية المحافظة للغرائز تتمثل فى ظواهر (التكرار القسرى) . فالصورة التى تعرضها الحياة علينا تنتج عن عمل إيروس وغريزة الموت متعاونين ومتعارضين .

وعلى هذه النظرية أن تثبت كفايتها . وعلى الرغم من أنها نشأت من الرغبة فى تثبيت عدد من أهم أفكار التحليل النفسى النظرية ؛ فقد تجاوزت حدود التحليل النفسى . سمعت مراراً أنه يقال فى ازدراء إن من المستحيل أن نركن إلى علم تفتقر مفاهيمه العامة إلى التحديد شأن فكرتى الليبيدو والغريزة فى التحليل النفسى . ولكن هذا المأخذ يستند إلى خطأ كلى فى تصور الوقائع . ذلك أن المفاهيم الرئيسية الواضحة والتعريفات الحاسمة لا سبيل إليها فى علوم النفس إلا إن حاولت هذه العلوم أن تدمج مجموعة من الحقائق فى إطار مذهب منطقى مسلّم به . إن هذا الوضوح والدقة فى المفاهيم العامة للعلوم الطبيعية — ومنها علم النفس — تزيّدٌ بل أمر مستحيل . فلم يبدأ علم الحيوان وعلم النبات من تعريفات صحيحة ملائمة للحيوان والنبات ؛ ولا يزال علم الحياة إلى اليوم عاجزاً عن تعريف مفهوم الحياة تعريفاً أكيداً . بل إن الطبيعيات ذاتها ما كان يتسنى لها إحراز أى تقدم

(١) إله الحب واللهو فى الأساطير اليونانية القديمة . (المترجم)

إن كان علينا أن ننتظر حتى تبلغ مفاهيمها عن المادة ، والقوة ، والجاذبية ، وما إلى ذلك ، ما يرجى لها من وضوح ودقة . ذلك دائماً شأن المفاهيم الرئيسية أو أعم المبادئ فى أى علم من العلوم ، تُترك فى بادئ الأمر دون تحديد وتشرح مبدئياً بالإشارة إلى ميدان الظواهر التى استخلصت منها ؛ ولا يمكن أن تتضح وتجد معنى بيناً ثابتاً إلا بتحليل مادة الملاحظة باستمرار . كنت أشعر دائماً أنه ظلم جسيم أن يأبى الناس دائماً اعتبار التحليل النفسى كأى علم آخر . وقد أفصحوا عن هذا الرفض فيما أثاروا من اعتراضات شديدة المكابرة. عيب دائماً على التحليل النفسى نقصه وعدم اكتماله ، مع أنه من الواضح أن علماً يقوم على أساس الملاحظة ليس أمامه إلا أن ينجز كشوفه جزءاً جزءاً ، ويحل مشاكله خطوة خطوة . وكذلك عند ما سعيت كى نُعنى بالوظيفة الجنسية ، تلك العناية التى مُنِعت عنها زمناً طويلاً ، اتهمت نظرية التحليل النفسى بأنها « ترى الجنسية فى كل شىء » . وعند ما أكدتُ أمراً طال إغفاله ، هو أهمية الدور الذى تلعبه المشاعر التى تعرض فى الطفولة الباكرة ، قيل لى إن التحليل النفسى ينكر العوامل الخلقية والوراثية — الأمر الذى لم يخطر ببالى قط. لقد كان الأمر مجرّد معارضة بأى ثمن وبأى طريقة .

كنت قد بذلت فعلاً فى مراحل سابقة من عملى محاولات فى سبيل الوصول إلى نظريات أعم ، بادئاً من ملاحظات التحليل النفسى . فقد وجهت النظر فى مقال قصير هو "بيانات خاصة بمبدئى الحياة النفسية" الذى نشر فى عام ١٩١١ إلى سيطرة مبدإ اللذة وتجنب الألم فى الحياة النفسية ثم حاول ما يسمى مبدأ الواقع محله (ولم يكن فى ذلك طبعاً أى جديد) . وبعد ذلك (١٩١٥ — ١٩١٧) حاولت تأليف "ما بعد علم النفس" . وكنت أقصد بذلك منهجاً فى البحث يُنظر بمقتضاه إلى كل عملية نفسية من حيث علاقتها بثلاثة إحداثيات أطلقت عليها على التوالى الدينامى ، والطبوغرافى ، والاقتصادى ؛ وهيّ لى أن ذلك يمثل أبعد هدف يمكن أن يطمح علم النفس إلى بلوغه . ولكن المحاولة لم

تكتمل ؛ وبعد كتابة بحثين أو ثلاثة — " الغرائز وأطوارها " ، " الكبت "، " اللاشعور "، " الحداد والاكتئاب " ، إلخ . — توقفت ، وربما كان ذلك من الحكمة ، إذ لم يكن الوقت قد حان بعد لمثل تلك الإثباتات النظرية . وقد أخذتُ على عاتقى فى أحدث أبحاثى النظرية مهمة تحليل جهازنا النفسى على أساس النظر التحليلى للوقائع المرضية فقسمته إلى أنا وهو وأنا أعلى [1] . والأنا الأعلى وريث عقدة أوديب ويمثل معايير الإنسان الأخلاقية .

لست أود أن يفهم من ذلك أننى خلال هذه الفترة الأخيرة من عملى تحوّلت عن الملاحظة المثابرة وأسلمت نفسى كليةً إلى الجدل النظرى . فقد بقيت دائماً على العكس على أوثق اتصال بالوقائع التحليلية ولم أكف عن دراسة التفاصيل ذات القيمة الإكلينيكية أو الفنية . وحتى عندما ابتعدت عن الملاحظة ، تجنبت فى حذر أى انغماس فى صميم الفلسفة . وكان ما فطرت عليه من عجز فلسفى خير ميسِّر لهذا التجنب ، كان بوسعى تفهم أفكار « ج . ت . فخنر » وقد تبعت هذا المفكر فى كثير من النقط الهامة . إن الاتفاق الكبير بين التحليل النفسى وبين فلسفة « شوپنهور » — ذلك أنه لم يؤكد فحسب سيطرة الانفعالات والأهمية القصوى للجنسية بل فطن أيضاً إلى عملية الكبت — لا ينبغى أن يردّ إلى وقوفى على تعاليمه . فقد قرأت « شوپنهور » فى وقت جد متأخر من حياتى . أما « نيتشه » ، ذلك الفيلسوف الذى طالما تتفق تخميناته وأحداسه اتفاقاً عجيباً مع كشوف التحليل النفسى الشاقة ، فقد تجنبته زمناً طويلاً لنفس هذا السبب ؛ لقد كان كلفى بمسألة السبق أقل من كلفى بالمحافظة على حرية ذهنى .

كان العصاب موضوع التحليل الأول ، وقد بقى الموضوع الوحيد زمناً طويلاً . ولا يسع أى محلّل نفسى أن يشك فى أن مهنة الطب كانت مخطئة فى فصلها هذه الاضطرابات عن الذُّهان وإلحاقها بالأمراض العصبية

(١) كتاب « الأنا والهو » .

العضوية . إن نظرية العصاب تنتمى إلى الطب النفسى وهى مقدّمة له لا غنى عنها . غير أنه قد يبدو أن دراسة الذُّهان دراسة تحليلية أمر غير عملى نظراً لافتقارها إلى النتائج العلاجية . فليس لمرضىّ العقل على العموم القدرة على اتخاذ موقف النقل الموجب ، ومن ثمة لا سبيل إلى أن تطبق عليهم أداة الفن التحليلى الرئيسية . ومع ذلك فثمة من الوسائل ما يمكّننا من تناول الذهان . فالغالب أن النقل لا يغيب غياباً كاملاً وإنما يمكن استخدامه إلى حدّ ما ؛ وقد أحرز التحليل نجاحاً لا شك فيه فى الانهباط الدورى ، وأطوار البارانويا الخفيفة ، وحالات الفصام الجزئية . وقد أفاد العلم — على الأقل — من تردد التشخيص فى كثير من الحالات مدّة طويلة بين تقرير وجود عصاب نفسى أو جنون مبكر ؛ ذلك أن المحاولات العلاجية فى مثل هذه الحالات أفضت إلى كشوف قيمة قبل أن تتوقف . ولكن الاعتبار الرئيسى بهذا الصدد هو أن كثيراً من الأمور التى لا مناص من البحث عنها فى الأعماق بحثاً شاقّاً فى حالات العصاب توجد على السطح فى حالات الذُّهان ، بوسع كل امرئ أن يراها . حتى أن أحسن الحالات للبرهنة على كثير من قضايا التحليل النفسى يزودنا بها الطب النفسى الإكلينيكى . وهكذا لم يكن مناص أن يجد التحليل النفسى سبيله منذ وقت مبكّر إلى موضوعات الملاحظة الطبية للأمراض العقلية . فقد استطعت فى تاريخ مبكّر جداً (١٨٩٦) أن أقرر فى حالة جنون ذى سمات بارانويا وجود نفس العوامل المسبِّبة ونفس العقد الانفعالية التى توجد فى حالات العصاب . وفسّر « يونج » عدداً بالغ الإلغاز من الأفعال المتكررة على وتيرة واحدة [1] لدى المجانين ببيان العلاقة بينها وبين تاريخ حياة المرضى ؛ وبرهن « بلويلر » على وجود عمليات فى مختلف أنواع الذُّهان كتلك التى اكتشف التحليل وجودها لدى العصابيين . ومنذ ذلك الحين لم يألُ المحللون جهداً فى سبيل الوصول إلى فهم الذُّهان. وقد عمدوا فى بعض مشاكل الذُّهان، وبخاصة منذ أمكن استخدام

(١) [stereotypies]

فكرة النرجسية إلى أن يظفروا بلمحات إلى ما وراء الستار . ولا غرو أن القسط الأكبر من ذلك حققه « أبراهام » فى توضيحه للاكتئاب الذهانى . حقًّا إن كل ما عرفناه فى هذا المجال لم يستحل بعد إلى قوة علاجية ؛ بيد أن مجرد الكسب النظرى أمر لا يستهان به ، وعلينا أن نقنع بالانتظار ريثما يطبق تطبيقاً عمليًّا . وبمضى الزمن لم يقو أطباء العقل أنفسهم على مقاومة قوة الإقناع التى تنطوى عليها حالاتهم الكلينيكية الخاصة . وها هو الطب النفسى الألمانى اليوم هدف " لتغلغل سلمى " للنظريات التحليلية . وبينما يصرح هؤلاء الأطباء دواماً بأنهم لن يكونوا أبداً محللين نفسيين ، وأنهم لا ينتمون إلى المدرسة " السُّنِّية " ولا يقرّون مبالغاتها ، وأنهم لا يؤمنون على وجه الخصوص بسيطرة العامل الجنسى ، فإن أغلب الناشئين منهم يتخذون هذا الجزء أو ذاك من النظرية التحليلية ويطبقونه بطريقتهم الخاصة على حالاتهم . إن الدلائل كلها تبشر بقرب حدوث تطورات أخرى فى نفس الاتجاه .

« السبع خواتم »
فرويد بين تلامذته المقربين
الجالسون من اليمين : ساكس ، فرنتزى ، فرويد . الواقفون من اليمين : چونز ، آيتنجون ، أبراهام ، رانك .
وقد اشتهرت هذه الصورة باسم « السبع خواتم » لأن فرويد كان قد أهدى إلى كل من تلاميذه الستة حجراً أثرياً ليرصع به خاتماً . كذلك الذى يحمله فرويد ، فيكون ذلك رمزاً للرباط الوثيق الذى ينظمهم فى حلقة تعمل على دعم حركة التحليل النفسى .